صورة الأوروبي في الأدب العربي: دراسة في جهود المستشرقة الألمانية روتراود فينالد

موسى ربابعة

أستاذ، قسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة الكويت

الملخص

إن مقاربة جدلية الأنا والآخر ما زالت من أهم المحطات التي يتأسس عليها حوار الحضارات. وإن تشكيل الصورة النمطية للآخر أضحت عملية ذات نتائج سلبية. فالجسور التي ينبغي أن تكون بين الأنا والآخر يجب أن تفضي إلى التصالح والتفاهم والتناغم. ولكن الأسئلة الكثيرة التي يمكن أن تنشأ هنا لا بد أن تكون نابعة من الفكرة القائمة على رؤية الأنا للآخر.

ويمكن أن يمتلك الآخر عبر مسيرة التاريخ وحركية الزمن صفات لا تليق بالمثل الإنسانية. لأن مجرد سماع كلمة «الآخر» يجعل الصورة لا تدور حول القيم الإيجابية، وإنما يجعلها تتمحور حول العدائية والشوفونية والاستعلائية التي تريد أن تجرد الآخر من أية قيمة إنسانية. ولذا فإنها تسبغ عليه سلسلة من الصفات التي تجعل إنسانيته من الدرجة الثانية أو الثالثة إلخ.....

ولما كان هدف هذه الدراسة الاضطلاع بدراسة صورة الأوروبي في الأدب العربي. متخذة من كتاب المستشرقة الألمانية روتراود فينالد نموذجاً تطبيقياً وإجراء بحثياً. فلا بد من الإشارة إلى أن دراستها تعد أول دراسة متخصصة في محيط الدراسات الاستشراقية التي تناولت صورة الأوروبي في الأدب العربي. ومن هنا تنبع أهمية هذه الدراسة التي تقوم على التتبع والتحليل والموازنة والمقارنة عبر أسلوب قائم على مقاربة لبعض الأعمال الأدبية العربية. وخاصة أن هذا الكتاب يؤسس لبدايات تشكيل صورة الأوروبي في الأدب العربي. قبل أن تظهر الأعمال الأدبية التي جعلت فكرة حوار الحضارات أو صراعها الأساس الذي تقوم عليه، وفي ضوء هذا التصور ينبغي الإشارة إلى سهيل إدريس وإلى الطيب صالح وجبرا إبراهيم جبرا. وغيرهم من الروائيين العرب الذين اتخذوا من ثيمة الآخر محوراً أساسياً في أعمالهم الروائية .

إن الأفكار التي ساقتها المؤلفة في كتابها حاولت أن تقدم صورة شاملة للآخر الأوروبي في الأدب العربي منذ الحرب الكونية الأولى والثانية ،مرتكزة في ذلك على أطر خاصة منها الإطار الاستعماري والإطار الثقافي والمرجعية الدينية وغير ذلك من المحاور. وقد ركزت المؤلفة على الكشف عن صورة المرأة الأوروبية في الأدب العربي على نحو خاص ،إذ إن كثيراً من الأعمال الأدبية بدأت منذ وقت مبكر في نسج خيوط التواصل بين الحضارات والثقافات المختلفة .

إن تشكيل صورة للآخر الأوروبي في الأدب العر بي لا يمكن أن يكون بعيداً عن فكرة الاستعمار والدين وغيرها من المعطيات التي تشكل التباين بين الحضارات. ولكن أستطاع الأدب العربي أن يشكل صورة حقيقية للآخر الأوروبي. أم أن الصورة تبدو قاتمة غير واضحة المعالم. أم أنها صورة مركبة معقدة تحتاج إلى مزيد من الإضاءة التي تقوم على المكاشفة والصراحة ؟

تتغيا هذه الدراسة أن تقارب صورة الأوروبي في الأدب العربي من منظور باحث غربي، فالسفر المعاين هنا يحمل عنوان «صورة الأوروبي في الأدب العربي» لمؤلفته المستشرقة الألمانية روتراند فيلاند، وهو أول كتاب يصدر في ألمانيا يتحدث عن هذه الثيمة، فالدراسات الاستشراقية الألمانية كانت تهتم بدراسة الأدب العربي القديم في المقام الأول؛ إذ إن الاهتمام بالأدب العربي الحديث جاء في مرحلة متأخرة، وقد جرت العادة أن ينظر إلى صورة العربي في الأدب الأوروبي أو الأدب العالمي، والكتاب يمتلك أهميته في كونه يتناول هذه الصورة في الأدب العربي الذي تزامن مع الاستعمارين الفرنسي والبريطاني للبلدان العربية، ومن هنا فإن الصورة لا يمكن أن تكون مشرقة أو متألقة، وإنما تكون مظلمة أو سلبية أو يشوبها شيء من السواد والقتامة .

إن صورة الآخر إما أن تعني التفاهم والتواصل والحوار، وإما أن تتغيا النفي والإقصاء والإنكار .فالحوار والتواصل والإنكار والإقصاء صارت صوراً مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالعولمة والعلاقة بين المركز والهامش على مختلف الصعد. فالانفتاح على الآخر يتخذ أشكالاً وصوراً متناقضة ومتعارضة إلى حد كبير، فالأوروبي في الأدب العربي يمكن أن يمتلك صورة واحدة ذات بعد نمطي؛ لأن تنميط الشخصية يمكن أن يمتلك ظلالاً وإيحاءات ترتسم في الوعي الذي يدرك سلبية الصورة وانعكاساتها السلبية .

ويمكن معاينة هذا الموضوع من مرتكزات متنوعة، وذلك على النحو الآتي:

المرتكز الأول - طريق الأوروبيين إلى الشرق

إن ما مثلته حملة نابليون على مصر من انعكاسات تجسد الرؤية الأولى لصورة الأوروبي المستعمر الذي يبتغي الهيمنة والسيطرة، وأول صدى لتلقي هذا الأمر تمظهر في كتابات المؤرخين مثل الجبرتي، والشرقاوي، ونقولا الترك وغيرهم، فالصورة المرآوية التي انبنت في هذه المرحلة تتمركز حول الاختلاف في الدين، فأطلقت مجموعة من الأوصاف مثل: الفرنسيس والفرنساوية، والإفرنج، والكفار والكفرة، في مقابل المسلمين والإسلام، ومن هنا بدأ الصراع مع الكفار. ولذلك تتجلى البدايات الأولى لصورة الأوروبي، وهي صورة سلبية إلى حد كبير.

المرتكز الثاني- الأوروبيون في أدب الرحالة العرب في القرن التاسع عشر

إن تجليات التواصل مع الحضارة الغربية تجلت في البعثات العلمية؛ ففي عهد محمد علي أرسل نحو ثلاثمائة شخص في بعثات علمية إلى أوروبا، ويمكن الإشارة هنا إلى أهم اثنين تحدثا عن الغرب، وهما: الطهطاوي، وعلي مبارك، وهنا تبرز الصور في بعديها الإيجابي والسلبي عن الآخر، فالطهطاوي يمتدح اهتمام الفرنسيين بأمورهم الصحية، وممارسة الرياضة، وعنايتهم بالنظافة، لكنه وسمهم بالسلبية لالتماسهم اللذة، وأشار إلى كثير من العادات التي يمارسونها مثل :معاقرة الخمرة، وغيرها من متع الحياة. ولا يمكن فصل رؤية المصريين عن رؤية اللبنانيين الذين عكسوا جوانب متعددة من صورة الأوروبيين، فأحمد فارس الشدياق، وفرنسيس المراش، وسليم بطرس مثلوا قواسم مشتركة في التواصل مع الغرب، فالعلاقات السورية واللبنانية مع الغرب تجسدت من الناحية السياسية والدينية والفكرية والثقافية بصورة عميقة . فأحمد فارس الشدياق الذي أقام في بريطانيا وفرنسا، جسد كثيراً من التصورات الخاصة بالأوروبيين وخاصة في كتابيه: «الساق على الساق فيما هو الفارياق»، و«كشف المخبأ عن فنون أوروبا». فخلاصة رأيه أن الإفرنج ليسوا موحدين، وعلى الرغم من خيرات بلادهم وتقدم المستوى العلمي فإنهم يعيشون في تمايز طبقي، ص 81. فالبريطانيون يهتمون بالعلم، وهو ما أشار إليه الجبرتي والطهطاوي عند الفرنسيين، وأشاروا إلى الغنى الذي يتجسد عند الأوروبيين، لكن هذا لم يمنعهم من القول إن ثمة أناساً منهم فقراء ولا يتمتعون بأي قدر من الثقافة .وقد امتدح الشدياق الحقوق البشرية في أوروبا، لكنه في الوقت نفسه أشار إلى غياب التماسك الاجتماعي .وقد كشف عن العلاقات بين الرجل والمرأة ووصف الإنجليز والفرنسيين وبين الفروق فيما بينهم.

ومع أنه تحدث عن الإنجليز فإن وصفه لباريس بأنها «معدن العلوم واللذات» جاء متطابقاً مع وصف الطهطاوي لها .فمشاهدات الشدياق ومعايناته في أوروبا تحمل انطباعات سلبية أكثر مما تحمل انطباعات إيجابية .(ص97). ولا تبتعد صورة الأوروبي عند كل من فرانسيس المراش وسليم بطرس عما جاء عند الشدياق .ولكن ثمة أشياء استجدت لا تتوقف عند وصف الأشخاص وإنما تجاوزت ذلك إلى وصف المدن، فقد وصف المراش باريس بأنها جنة الأرض، ووصف فرنسا كلها بأنها أرض السعادة .وتحدث المراش عن غنى الفرنسيين، وعن بنيتهم الفكرية وابتكاراتهم العلمية.

المرتكز الثالث - الأوروبي موتيف الأعمال الأدبية

عند احتلال الإنجليز لمصر عام 1882، تجسدت صورة الأوروبي في الأعمال الأدبية بصورة أكثر وضوحاً، وقد تجلى مثل هذا الأمر في قصائد المدح التي ألفها ناصيف اليازجي والشدياق في الملكة فكتوريا والقيصر فرانتس جوزيف الأول، فالشعراء كانوا يمدحون الأمراء والموظفين أصحاب المراتب العليا، الذين يأتون إلى الشرق الأوسط وشمال إفريقيا، لكن الشدياق سبق أن وصف هؤلاء بالبخل، فهم لايغدقون الأموال على الشعراء نظير مدائحهم .

المرتكز الرابع - أهمية تقليد الأوروبيين أو عدم تقليدهم

إن الأوروبيين الذين ظهروا في الأعمال الأدبية لم يكونوا في أوروبا وإنما في البلدان العربية، فهم إما أن يكونوا سياحاً، وإما تجاراً، وإما أطباء، فثمة أعمال تناولت صورة الأوروبي مثل: مسرحية يعقوب صنوع «السواح والحمار» ورواية «سليم البستاني» الهيام في جنان الشام. لقد تميزت صورة الأوروبي في البلدان العربية بالتكبر والعجرفة، وهذه هي الصورة التي ظهرت في الأعمال الأدبية المبكرة؛ فالفتاة الإيطالية التي تعمل خادمة في مسرحية يعقوب صنوع الفكاهية «بورصة مصر» رفضت الزواج من الشاب المصري.فعمل مثل صنيع خليل خوري «آه، لست بالإفرنجي» يرفض محاكاة الأوروبي في سلوكاته وأسلوب حياته فهو يقول: «نحن نريد أن يكون البريطاني بريطانياً، والفرنسي فرنسياً والعربي عربياً» (ص 136)، فلا يجوز أن تقوم العلاقة بين الشعوب على طمس الهويات وإنما في المحافظة على الخصوصيات.ولذلك فإن بعض الأدباء أطلقوا كلمة «تفرنج» على بعض الناس، مثال ذلك ما جاء في مسرحية يعقوب صنوع الكوميدية «الأميرة الإسكندرانية».

المرتكز الخامس - المواجهة مع المستعمر

ثمة أعمال حامت حول المستعمر الأجنبي كما جاء في ثلاثة أعمال ليعقوب صروف، وهي «فتاة مصر» و أمير لبنان»، و«فتاة الفيوم» وفي رواية «عظات التاريخ» لعبدالقادر حمزة، وفي مقامات «ليالي سطيح» لحافظ إبراهيم .(ص 171). فروايات صروف الثلاث تتمحور حول السياسة البريطانية في الشرق الأوسط. وقد تجسدت صورة الأوروبي على أنه عدو في

«عظات التاريخ» وفي «ليالي سطيح» .ومن هنا فإن احتلال مصر لا يمثل حدثاً بين ثقافتين، وإنما بين بلدين .

وهناك أعمال كثيرة جسدت بعض القضايا المجتمعية التي تهم العالمين العربي والأوروبي، منها صورة المرأة بين الشرق والغرب، وقضايا أخرى، ففي أعمال نقولا حداد «أسرار مصر» و«أسيرة الحب» إشارات واضحة إلى ضرورة تحسين مكانة المرأة الاجتماعية، فدعا إلى ضرورة اكتسابها للتعليم وحقها في اختيار الزوج. إنه تعرض إلى أزمات اجتماعية في الشرق والغرب ونادى بحلها .ولكن ثمة تركيزاً واضحاً على شخصية الأوروبي تجلى في رواية أمين الريحاني «زنبقات الغور» إذ نعت بأنه فظ، وقاس، ومستبد، حتى إن مريم في الرواية نعتتهم بأنهم ليسوا بشراً.

المرتكز السادس - المحافظة على الهوية

لقد اعتنت بعض الأعمال بالحديث عن الفروقات بين ثقافتي الشرق والغرب، كما فعل صروف والمويلحي، وثمة أعمال أخرى دارت حول هذه الثيمة، مثل «مذكرات حكمت هانوم» لعيسى عبيد، و«عودة الروح» لتوفيق الحكيم، وأعمال المنفلوطي، ومن هنا كانت مسرحية عثمان صبري «شبابنا في أوروبا» أول عمل أدبي يعالج ثيمة الحب بين الدارسين في الغرب والأوروبيات . (ص 209).

المرتكز السابع - التقييم الأخلاقي للأوروبي

إن صورة الأوروبي لم ينظر إليها من زاوية نظر انحطاط الأوروبيين، وإنما وصفوا بأنهم غرباء؛ أي أجانب، وهنا يمكن إدراك بعض التطور الذي تعرضت له صورة الأوروبي؛ إذ تم التحول من وصف الأوروبيين بأنهم أجانب، وإنما وصفوا بالانحطاط الأخلاقي، وقد تجسد مثل هذا في المواجهة الثقافية بين مصر وأوروبا، كما تجلى في رواية «الحجاب» للمنفلوطي، و«الذبائح» ليزبك، و«مصر الحرة» لحسون. ص 314.

ومن أهم الأعمال التي كرست مثل هذه المعطيات، ما تمثل في روايتي «عودة الروح» و«عصفور من الشرق» لتوفيق الحكيم .فالسؤال المهم الذي يكمن في وعي توفيق الحكيم الكاتب يتجسد في السؤال التالي: ما القيمة النوعية لحياة المصريين في مقابل حياة

الأوروبيين؟ (ص 314). ومن هنا ركز الحكيم على إنسانية العربي، ولاإنسانية الأوروبي. ففي رواية «عصفور من الشرق» تتجسد أفكار الإنسان الشرقي المستغرق في عالم المشاعر والأفكار، في حين يغرق الأوروبي في عالم المادة، إنه التناقض الذي يظهر بين عالمين: عالم الروح وعالم المادة، فالشرقيون لا يعرفون أهمية الزمن، ولذلك قال الرجل الفرنسي: إني لا أستطيع أن أنفق عمري جالساً هكذا، إن الزمن شيء لا تعرفونه أنتم معشر الشرقيين، ولا يعنيكم أمره .وقد تجسد الخواء الحضاري في هذه الرواية بنعي الحكيم للحضارة الغربية التي تفتقر إلى عالم الروح.

وبالإضافة إلى ذلك أسهم يحيى حقي في «قنديل أم هاشم» في تصوير العالم الغربي، وكشف عن الصراع القائم بين الدين الذي يمثله الشرق، والعلم الذي يمثله الغرب، وهنا يتجلى تقاطب غير العادي في رسم الاختلاف بين الثقافتين، فالتصالح بين الدين والعلم أمر غير ممكن كما ظهر عند حقي، وأما فؤاد الشايب في «تاريخ جرح» فقد عكس في قصة «الشرق شرق» البعد الشاسع بين الحضارة الغربية والحضارة العربية، فالشرقي يظل عاجزاً عن إدراك الحضارة الغربية، وهنا تبرز ثنائية الشرق والغرب، فالإنسان الشرقي عاجز عن امتلاك ما هو غربي، وفي قصة «أحلام يولاند» تظهر نزعة العشق للشرق الذي يمثل عالم الروح، في حين تتمثل الكراهية للغرب الذي يمثل عالم المادة .

المرتكز الثامن - الغرب المستعمر من الحرب العالمية الثانية حتى الراهن

إن النظرة التي يمكن أن تكتسب مركزيتها الأساسية تتمثل في الأدب العربي المناهض للاستعمار ؛ ففي مثل هذا السياق هناك أعمال أسهمت في الكشف عن مساوئ الاستعمار الغربي ومعايبه، ومن هذه الأعمال «قصص إبراهيم الورداني القصيرة»، وعند مفيد الشوباشي في رواية «طلائع الأحرار» وعبدالحميد جودة السحار في روايته «قلعة الأبطال» و «أرض البطولات» لعبدالرحمن الباشا، وفي هذه الأعمال وفي غيرها تتجلى الأوصاف التي أطلقت على المستعمرين، فهم وحوش، وشياطين، وغيلان، وبهائم، وميكروبات ذوو لون كاكي .(ص 445)، وقذرون وأنجاس .

وتمثل رواية «موسم الهجرة إلى الشمال» للطيب صالح من خلال بطلها مصطفى سعيد رؤية مكثفة للتناقض والتصادم الحضاري، الذي صور الأثر النفسي للاستعمار

وانعكاس مثل هذا الأمر على شخصيته.وتمثل رواية «جسر الشيطان» لعبد الحميد جودة السحار رسالة الشرق لزرع بذور الروحانية في تربة الغرب المادية القاحلة .فهي رواية تجسد الصراع بين العقلية الغربية والعقلية الشرقية متخذة من ثيمة الجنس محوراً أساسياً لها .فالإيمان بالمحسوس يقف في مواجهة الإيمان بالغيبيات ،فالروح «بطارية الحياة» بحسب زعم بطل الرواية .وفي رواية «الحي اللاتيني» لسهيل إدريس يظهر النزاع بين بيروت وباريس، وهو نزاع يشي بالتناقضات الثقافية ومحاولة الولادة من جديد عبر نزعات التحرر وهواجسه وعوالمه .ولا يمكن تجاهل الحركة المعاكسة التي تجسدت في أن الغرب يسعى إلى الشرق، فرواية مثل رواية «مملكة الله» لجاذبية صدقي، يتجلى النزوع الروحي نحو الشرق . ولكن تبقى المسائل عالقة والأمر بحاجة إلى جلاء وإيضاح .

ووفق وجهة نظر الكاتبة فإن ثمة نقاطاً مهمة شهدتها صورة الأوروبي في الأدب العربي، ولكن ذلك لا يعني أن تسود العدائية بين العرب والغرب، وإنما يجب أن تقوم العلاقة على التفاهم والتواصل، ولكن الصورة الحقيقية التي تجسدت في الأعمال الأدبية كانت ترمي إلى التخلص من الشوفينية والدعوة إلى الاعتراف بالآخر؛ إذ إن الممارسة الاستعمارية لم تستطع أن تجنب العربي النظرة السلبية التي يكنها للغرب، ولذلك فإن التعايش المشترك يغدو صعب المنال؛ لأن ثمة فرقاً شاسعاً بين حضارتين أو ثقافتين تقومان على أسس مغايرة، لكن ذلك لا يمنع من التفاهم والتصالح.

مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية

فصلية علمية محكمة تصدر عن مجلس النشر العلمي بجامعة الكويت
تعنى بالبحوث والدراسات الإسلامية

رئيس التحرير الأستاذ الدكتور: عبدالعزيز خليفة القصار

صدر العدد الأول في رجب ١٤٠٤هـ - أبريل ١٩٨٤م

* تهدف إلى معالجة المشكلات المعاصرة والقضايا المستجدة من وجهة نظر الشريعة الإسلامية.
* تشمل موضوعاتها معظم علوم الشريعة الإسلامية: من تفسير، وحديث، وفقه، واقتصاد وتربية إسلامية، إلى غير ذلك من تقارير عن المؤتمرات، ومراجعة كتب شرعية معاصرة، وفتاوي شرعية، وتعليقات على قضايا علمية.
* تنوع الباحثون فيها، فكانوا من أعضاء هيئة التدريس في مختلف الجامعات والكليات الإسلامية على رقعة العالمين: العربي والإسلامي.
* تخضع البحوث المقدمة للمجلة إلى عملية فحص وتحكيم حسب الضوابط التي التزمت بها المجلة، ويقوم بها كبار العلماء والمختصين في الشريعة الإسلامية، بهدف الارتقاء بالبحث العلمي الإسلامي الذي يخدم الأمة، ويعمل على رفعة شأنها، نسأل المولى عز وجل مزيداً من التقدم والازدهار.

جميع المراسلات توجه باسم رئيس التحرير

ص.ب ١٧٤٣٣ - الرمز البريدي: 72455 الخالدية - الكويت هاتف: ٢٤٨١٢٥٠٤ - ٢٤٩٨٤٧٢٣ - ٢٤٩٨٨٠٩٥
فاكس: ٢٤٨١٠٤٣٤

العنوان الإلكتروني: E-mail - jsis@ku.edu.kw

issn: 1029 - 8908

عنوان المجلة على شبكة الإنترنت: http://pubcouncil.kuniv.edu.kw/JSIS

اعتماد المجلة في قاعدة بيانات اليونسكو Social and Human Sciences Documentation Center

في شبكة الإنترنت تحت الموقع www.unesco.org/general/eng/infoserv/db/dare.html